

مؤتمرات ابن خلدون في الذكرى المئوية السادسة لوفاته (1406 — 2006)

إعداد : رضوان السيد

تواصل الاهتمام العربي والعالمى بابن خلدون على مدى تجاوز القرن ونصف القرن؛ منذ نشر سلا □ ستر دي ساسي فصولاً من المقدمة، وأكملها كاترمير في خمسينات القرن التاسع عشر وفي العام 1857م نشرتها مطبعة بولاق بتحرير الشيخ نصر الهوريني.

في العام 2006م حلت الذكرى المئوية السادسة لوفاة ابن خلدون، انعقدت بهذه المناسبة عشرات المؤتمرات في مشرق العالم العربي ومغربيه، وفي عواصم العالم الكبرى، والمؤسسات الثقافية الدولية - وكان من آخرها المؤتمر الذي انعقد بمصر واستمر أربعة أيام برعاية واحتضان المجلس الأعلى للثقافة ومكتبة الإسكندرية (*). واللافت للانتباه أنّ تلك المؤتمرات ما قالت جيداً كثيراً؛ بل ركزت على خمسة أمورٍ اعتبرها العلماء والأساتذة المشاركون في بعضها أو سائرها إنجازات ابن خلدون الأساسية:

أولاً: ابن خلدون صاحب المنهج المتميز في كتابة التاريخ. وهذا المنهج المتميز ينقسم إلى قسمين؛ القسم النظري أو الفلسفي، والقسم العملي أو التقني. في الجانب النظري اعتبر ابن خلدون أنّ علم التاريخ إنما هو خبرٌ عن العمران البشري والإنسان، وطبائعه، وتقلب أحواله. ولذلك فقد حدّد أسسَ ذلك العمران وموقع الإنسان المركزي فيه، وأحوال معاشه، في تفرقةٍ أرسطيةٍ بين الصورة والمادة. وبذلك تكون لعلم التاريخ لأنه علم العمران ثلاث وظائف: الكشف، والفهم، والتقدير. في الكشف تجري معانية الواقعة، وفي الفهم يجري النظرُ في تجريدها وصولاً إلى قراءتها قراءةً صحيحةً أي تبيان علاقتها بطبائع العمران، وفي التقدير تجري المقايسة ويجري الاعتبار بحثاً عن الإمكانيات المستقبلية. أمّا في الجانب العملي أو التقني والمتصل بالكتابة التاريخية فإنّ ابن خلدون يتحدث عن طرائق نقد الأخبار لجهة آليات النقل، ولجهة موافقتها لطبائع العمران والموجودات، ولجهة ملاءمتها لما نعرفه ونشهدُه من سياقاتٍ وأحوالٍ وعوائد وأعراف. ومنذ بدايات البحوث عن ابن خلدون كان هناك ثناءٌ كبيرٌ علي (علمية) ابن خلدون في المنهج التاريخي كما في تقنيات الكتابة التاريخية. ولأنّ قلة قليلة من الباحثين فقط قرأت تاريخ ابن خلدون قراءة متفحصة؛ فقد ظلت الفكرة السائدة أنّ الرجل لم يطبق منهجه التقديمي في كتابته التاريخية. وجاءت هذه المؤتمرات في العام 2006م معتمدة في محاضراتها في الأكثر علي المقدمة، ولذلك دارت حول نفسها في مسألتي: علم العمران، وعلم التاريخ، وظلت وصفية أو ثنائية وتقريرية.

ثانياً: ابن خلدون وعلم الاجتماع: منذ كتاب طه حسين عن ابن خلدون عشية الحرب

العالمية الأولى، وهو أطروحة أنجزها تحت إشراف ليدي برييل تلميذ دوركايم، ظل كثيرون يكررون أنّ ابن خلدون هو المؤسس الأقدم لعلم الاجتماع. وهذا التقدير ليس مقتصرًا على العرب بل تبنّاه اجتماعيون عالميون مثل غاستون بوتول وفون سيديرس، ومن الباحثين العرب المعروفين عالم الاجتماع علي عبدالواحد وافي، الذي أضاف لإنجازاته إعادة نشر مقدمة ابن خلدون نشرة (في خمسة أجزاء) حاول أن تكون علمية، والاجتماعي الآخر حسن الساعاتي. وما اختلفت الآراء في هذه المسألة في مؤتمرات العام 2006م؛ وإن يكن هناك من أنكر أن يكون حديث ابن خلدون في (علم العمران) و(أحوال المعاش) هو نفسه علم الاجتماع الوضعي بتياراته المختلفة في الأزمنة الحديثة (محمد عبد الوهاب جلال في مجلة التسامح، ع16). فقد أصرت الدكتورة سامية حسن الساعاتي (ولها كتابان عن اجتماعيات ابن خلدون) في مؤتمر القاهرة عام 2006م على أنّ وضعانية ابن خلدون حداثية بغض النظر عن العصر الذي عاش فيه، وإلا صارت العلوم كلها إثنية وأوروبية بداعي المركزية الغربية المعروفة.

ثالثاً: ابن خلدون وقيام الدول وانهيارها: الدولة في نظر ابن خلدون هي مادة العمران البشري، وجزء من طبيعته. ومع أنّ الرجل قال في المقدمة إنه يؤرّخ للجيلين (العرب والبربر) اللذين عاشا بالمغرب حتى أيامه، فإنه اعتبر مقولة الدولة مقولة إنسانية عامة؛ وبخاصة أنه طبق جزء المقولة الخاصّ بالعرب والبربر على الشعوب التركية عندما جاء إلى القاهرة من تونس إلى ظلال الدولة المملوكية الجركسية حتى وفاته عام 808هـ/1406م. اعتبر ابن خلدون أنّ أشكال المُلْك ثلاثة: المُلْك الطبيعي (البدائي؟) والمُلْك السياسي (دولة الحزم والمصلحة والعقلانية لدى الأمم الكبرى مثل الروم والفرس)، والمُلْك الديني (= الخلافة الإسلامية). وما قال ابن خلدون شيئاً عن نشوء الدول لدى الآخرين؛ لكنّ المفهوم أنه ينطبق عليها ما انطبق على العرب والبربر والتُرك: عصبية قَبَلِيَّة تقترب بدعوة دينية فتؤدي إلى قيام الدولة التي تأتي من البادية إلى المدينة، وتتعاظم إلى حدود الإمبراطورية بقدر قوة العصبية، ونجاح الدعوة الدينية. بعد ذلك يتحدث ابن خلدون عن (أجيال الدُول) أي تطوراتها بعد قيامها واستتباب الأمر لها في المدينة أو المصر، وهي تستمر لثلاثة أجيال أو أربعة، وتتقضي بانحلال العصبية لأسباب يذكرها.

إنّ الواقع أنّ هذه الرؤية لطرائق قيام الدول لدى ابن خلدون إنجاز له وإن اتخذ طابعاً تفسيرياً باستقراء ناقص هو نموذج العرب والبربر في التاريخ الإسلامي. وما شكك أحد في سلامة هذا التصور في البحوث عنه لما يزيد على القرن من الزمان. وقد ساد هذا التصور أو التفسير لدى العرب على الخصوص بعد دراسة محمد عابد الجابري: العصبية والدولة، مطلع الستينات. ولذلك ما كانت البحوث في مؤتمرات العام 2006م كثيرة بشأن هذا الأمر؛ وإن لم يخل بحث منها من ذكر لهذه المقولة. إنما أثّرت بعض الإشكاليات بشأن استثنائية الدولة الإسلامية أو الخلافة عنده. إذ إنه في الوقت الذي يقدّم فيه اعتبارات العصبية القبليّة (= المُلْك الطبيعي) في سائر الأحوال، يقول إنّ الخلافة الإسلامية الأولى

تقدمت فيها اعتبارات الوازع الديني أو الدعوة الدينية (قارن ببحث رضوان السيد في مؤتمر القاهرة، والذي نُشر بمجلة التسامح، ع16).

رابعاً: ابن خلدون وثقافته ومصادره والتأريخ للعلوم الإسلامية: كتب ابن خلدون عدة فصول في المقدمة في التاريخ للعلوم الإسلامية الدينية واللغوية والعقلية، فضلاً عن العلوم الطبيعية والكيمياء، وأدبيات العلوم الشعبية والأعراف وعوالم السيمياء. وما لقيت تلك الفصول التاريخية والحكمية اهتماماً إلا في النصف الثاني من القرن العشرين. فقد كانت الفكرة السائدة أنّ ابن خلدون ليس متخصصاً في هذه الشؤون العلمية، فضلاً عن عدائه للفلسفة، كما كان هناك استغرابٌ لتطويله في أخبار وأشعار الأعراف الشعبية والحفر والطلسمات. ثم إنَّ كثيرين اعتبروا تلك الفصول من لواحق المقدمة وليس من أصولها ولا تنتمي لمقولاتها في العمران البشري ومنهج التاريخ ونشوء الدول. ولذلك فقد كان من ميزات مؤتمرات العام 2006م الاهتمام بفصول العلوم في المقدمة، وبخاصة موجزاته لعلوم الفقه والأصول والكلام. وللعلوم الطبيعية والرياضية والهندسة. وبقيت الحيرة إزاء اهتمامه الفائق بأخبار وكتب وأشعار الحفر والطلسمات. فكان هناك مَنْ اعتبرها وصفاً لواقع. وهناك من اعتبرها من آثار اللاعقلانية (الدينية والأشعرية) لديه. وقد مضى بعض المختصين قُدماً في استكشاف مصادر ثقافة ابن خلدون، فقال بمعرفته الجيدة بمؤلفات ابن رشد، ومؤلفات ابن سينا والطوسي. ولفت الانتباه إلى مؤلفه الصوفي (شفاء السائل)، ومؤلفه الآخر في اختصار محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين لفخر الدين الرازي (606هـ). وفي الجملة تقدمت معرفتنا بثقافة ابن خلدون ومصادره، وتنوع معارفه فحتى الفلسفة التي أظهر الرجل زهداً فيها، بل كراهية لها، أخذ منها مقولات أساسية في مقدمته، وكان يعرفها معرفة جيدة من خلال ابن رشد وغيره. ونعرف الآن أنه اطلع حتى في التاريخ على كتب جديدة كثيرة في مقامه الطويل بالقاهرة.

خامساً: شخصية ابن خلدون: كتب ابن خلدون جزءاً في سيرته الشخصية ألحقه بآخر تاريخه. وقد نشره منفرداً محمد بن تاويت الطنجي في الخمسينات بعنوان: (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً). وقد استغنت أكثر الدراسات حول مقدمته عن التحدث في شخصيته؛ في حين لاحظت قلة من الباحثين أنه كان ذا طموح سياسي بارز في شبابه وكهولته، وهو على أي حال من أسرة وجاهة ووزارة. وإلى ذلك تعود مشاكله مع السلطات بتونس وبلدان المغرب الأخرى؛ إذ ما كان أحد من المتنفيين وبخاصة في تونس - يطمئن إليه. وإلى ذلك يُعيد عديدون أيضاً علاقته المترججة بصديقه لسان الدين ابن الخطيب ذي الوزارتين، والذي مات مقتولاً. وفي بحوث مؤتمرات العام 2006م تحدث أحد المحاضرين عن شخصيته الدليلية مستشهداً بتساؤله أمام تيمورلنك وأمام الظاهر برقوق، وكثرة عزله من منصبه في قضاء المالكية. وفي الخلاصة يبدو ابن خلدون شخصية محافظة في الدين (مالكي المذهب، أشعري العقيدة)، منكمشة في السلوك مع الزملاء والناس، يميل للعزلة والتأمل. ومن الواضح أن إيثاره الهجرة والاستقرار بمصر وخسارته لأسرته؛ كل ذلك يعني أنه لو كان ذا طموح سياسي غلاب لما فعل ذلك

أو لما صار إليه.

ما زادت مؤتمرات ابن خلدون في الذكرى المئوية السادسة على وفاته من معلوماتنا عنه وعن فكره ومؤلفاته كثيراً. لكنها كانت مفيدة في التذكير ببعض ركائز فهمه وفهم علمه الكبير. وقد نُشرت كتبٌ جديدةٌ عنه، كما أُعيد طبعُ كتبٍ مشهورةٍ له ومن ضمنها المقدمة (بتحقيق علي عبد الواحد وافي). بيد أن أهمَّ ما أتت به الذكرى السادسة إقبال الأستاذ إبراهيم شيوخ، الباحث التونسي المعروف على إصدار نشرة جديدة للمقدمة والتاريخ استناداً لخمس مخطوطاتٍ من اسطنبول، قرئت كلها على ابن خلدون، وعليها خطه وتعليقاته. وقد صدر من العمل مجلدان يستوعبان المقدمة. ووزع الأستاذ شيوخ أجزاء التاريخ ومخطوطاته على عدة باحثين لتحقيقها تحت إشرافه، ويُنتظر أن تكتمل هذه النشرة الجليلة بالفعل أواخر العام 2008م. وسيختمها شيوخ بجزأين منفصلين أحدهما الفهارس، والآخر لدراسة تركيب العمل، وطرائق ابن خلدون الكتابية. ويبدل الجزءان الصادران من (العبر) على قراءة رائعة لهذا النصّ المُشكّل. وسيتبين الفارق بالفعل عند نشر بقية الأجزاء؛ ذلك أن التاريخ بالذات ما نُشر نشرةً علميةً مقبولة من قبل.

(* نشرت مجلة التسامح في العدد رقم 17 (1427هـ/2006م) ملفاً عن ابن خلدون (ص135-230). وكذلك فعلت مجلة المستقبل العربي ع7/2006، ص87-155.